

سياسة الحسن قبل الحرب

١ - وضع الحسن رضى الله عنه لبيعته صيغة خاصة وقبض يده عما أريد معها من قيود ، وأرادها هو على السمع والطاعة والحرب لمن حارب والسلام لمن سالم فكان عند ظن المعجبين ببلاغته الإدارية بما ذكر من الحرب ولوح بالسلام فأرضى الفريقين من أحزاب الكوفة دعاة الحرب والمعارضين ، وكان لديه من الوضع العام فى الكوفة ما يكفيه نذيراً لاتخاذ مثل هذه الحيلة الحكيمة لوقت ما .

٢ - زاد الحسن رضى الله عنه المقاتلة مائة مائة ، وكان ذلك أول شيء أحدثه حين الاستخلاف فتبعه الخلفاء من بعده عليه^(١) .

٣ - وقد أمر الحسن بقتل رجلين كانا يتجسسان لعدوه عليه وهدد بتنفيذ هذا الحكم روح الشغب التى كان يستجيب لها عناصر كثيرة فى الكوفة والبصرة .

قال المنfid رحمه الله : (لما بلغ معاوية وفاة أمير المؤمنين وبيعة الناس ابنه الحسن دس رجلا من حمير إلى الكوفة ورجلا من بنى القين إلى البصرة ليكتبا إليه بالأخبار ويفسدا على الحسن الأمور ، فعرف بذلك الحسن فأمر

(١) شرح النهج لابن أبى الحديد .

باستخراج الحميري من عند لحام بالكوفة فأخرج وضرب عنقه^(١) .
ويؤيد أبو الفرج الأصفهاني ما ذكره المفيد ، ثم قال : (وكتب
الحسن إلى معاوية : أما بعد فإنك دسست إلى الرجال كأنك تحب اللقاء
لا أشك في ذلك فتوقعه إن شاء الله ، وبلغني أنك شمت بما لم يشمت به
ذوو الحجى (يشير إلى ما تظاهر به معاوية من الفرح بوفاة أمير المؤمنين
عليه السلام) ، وإنما مثلك في ذلك كما قال الأول :

فإننا ومن قد مات منا لكالذى يروح ويمسى فى الميت ليقتدى
فقل للذى بينى الخلاف الذى مضى تجهز لأخرى مثلها فكأن قد
٤ - تمهله عن الحرب يرغم إلحاح الأكثرين ممن حوله على البدار إليها
منذ تسلمه الحكم فى الكوفة

٥ - استدراجه معاوية عن طريق التبادل بالرسائل إلى نسيان موقفه
التأرجح الذى لم تقو على دعمه الدعاوى الفارغة الكثيرة ، فإذا بإضامة من
الغلطات هى أجوبة معاوية للحسن وهى التى كشفت للناس معاوية المجهول
ومهدت للحسن معذرتة تجاه رأى العام فى حربه لمعاوية ، وإذا بمعاوية
الغريق المغلوب فى منطق العقلاء وإن يكن الغالب بعد ذلك فى منطق القوة .
واستنكر عامل الإمام على البصرة عبد الله بن عباس إرسال معاوية بعثة
العيون والجواسيس إلى البصرة ، وأرسل له رسالة كما أرسل أخرى إلى الإمام
الحسن يشجعه على مقاومة معاوية ، وقد جاء فى هذه^(٢) الرسالة : « أما بعد

(٢) شرح ابن أبى الحديد :

(١) كشف الغمة - والبحار - والإرشاد .

فإن المسلمين ولوك أمرهم بعد على عليه السلام ، فشمّر للحرب وجاهد عدوك وقارب أصحابك واشتر من الظنين دينه بما لا يثلم لك دنياء ، وولّ أهل البيوت والشرف تستصلح به عشائهم حتى يكون الناس جماعة ، فإن بعض ما يكره الناس ما لم يتعد الحق ، وكانت عواقبه تؤدي إلى ظهور العدل وعز الدين خير من كثير مما يحبه الناس إذ كانت عواقبه تدعو إلى ظهور الجور وذل المؤمنين وعز الفاجرين ، واقتد بما جاء عن أئمة العدل فقد جاء عنهم أنه لا يصلح الكذب إلا في حرب أو إصلاح بين الناس ، فإن الحرب خدعة ولك في ذلك سعة إذ كنت محارباً ما لم تبطل حقاً . . .

واعلم أن علياً أباك إنما رغب الناس عنه إلى معاوية أنه آسى بينهم في النوى وسوى بينهم في العطاء فثقل عليهم ، واعلم أنك تحارب من حارب الله ورسوله في ابتداء الإسلام حتى ظهر أمر الله ؛ فلما وحد الرب ومعحق الشرك وعز الدين أظهروا الإيمان وقرءوا القرآن مستهزئين بآياته ، وقاموا إلى الصلاة وهم كسالى وأدوا الفرائض وهم لها كارهون ، فلما رأوا أنه لا يعز في الدين إلا الأتقياء الأبرار توسموا بسمى الصالحين ليظن المسلمون بهم خيراً ، فزالوا بذلك حتى شركوهم في أماناتهم وقالوا حسابهم على الله ، فإن كانوا صادقين فإخواننا في الدين وإن كانوا كاذبين كانوا بما اقترفوا هم الأخسرين ، وقد منيت بأولئك وبأبنائهم وأشباههم والله ما زادهم طول العمر إلا غياً ولا زادهم ذلك لأهل الدين إلا مقثاً ، فجاهدوهم ولا ترض دنياه ولا تقبل خسفاً ، فإن علياً أباك لم يجب إلى الكوفة حتى غلب على أمره فأجاب وإنهم يعلمون أنه

أولى بالأمر إن حكموا بالعدل ، فلما حكموا بالهوى رجع إلى ما كان عليه حتى أتى عليه أجله ، ولا تخرجن من حق أنت أولى به حتى يحول الموت دون ذلك والسلام » .

واحتوت هذه الرسالة على أمور مهمة :

١ - أن ابن عباس عرض على الإمام أن يبلى الأشراف وذوى النفوذ ويشري من الظنين دينه ليقضى بذلك على روح التفرقة ، ويكون الناس جماعة واحدة حتى يتمكن من مناجزة معاوية ومقاومته ، وغفل ابن عباس أن ذلك يتنافى مع السياسة الرشيدة التى انتهجها أهل البيت فإنها بنيت على الحق الخالص .

٢ - واشتملت هذه الرسالة على أهم الأسباب الوثيقة التى أدت إلى خذلان الإمام فى دور خلافته ونجاح معاوية فى عهد حكومته . فإن الإمام قد انتهج سياسة العدل والمساواة فسوى بين المسلمين فى العطاء فلم يقدم أحداً على أحد فى العطاء عملاً بما أمر به الإسلام ، ونصت عليه مبادئه العادلة التى محت التفاوت بين الأبيض والأسود وهدمت الحواجز بين الغنى والفقر وجعلت « الناس سواسية كأسنان المشط كلهم من آدم وآدم من تراب » لا ميزة لأحد على أحد إلا بالتقوى ، ولا فضل لأحد على أحد إلا بالعمل والكفاءة . سار الإمام على رضى الله عنه على هذه السياسة العادلة ومشى على هذه الخطة الواضحة حتى ضرب الرقم القياسى للمساواة والعدل ، فمن بوادر

عدله أنه ساوى بين سيدة قرشية وبين أمة في العطاء فغاظ القرشية ذلك وأقبلت إليه وهي محنقة مغیظة تقول بحرارة :

« أتساوى في العطاء بيني وبين هذه الأمة » .

فرمقها الإمام بطرفه وأخذ بيده قبضة من التراب وجعل يقلبه بيده وهو يقول : « لم يكن بعض هذا التراب أفضل من بعض » .

لقد ثقل على الناس هذه المساواة ، وشق عليهم هذا العدل لأنهم لا يتطلبون إلا مصالحهم الخاصة ، فلذا زهدوا في حكومته وخضعوا لحكومة معاوية الذي لا هدف له إلا تحقيق رغباته .

٣ - وأعرب ابن عباس في رسالته عن دراسته الوثيقة لنفسيات الأمويين ومعرفته بما انطوت عليه قلوبهم ، فلقد بين أنهم مجموعة من الملحدین ، فإذا حاربهم الإمام فإنما يحارب من حارب الله ورسوله حينما بزغ نور الإسلام ، فإنه لما كتب الله النصر لدينه ، وقهر سلطان الإسلام العرب دخلت أمة فيه ، لكن لا إيماناً منهم بقضيته بل خوفاً من حر السيف ورهبة الموت ، فكانوا بتظاهرون باعتناق الإسلام فيقرأون آيات الذكر الحكيم ، ولكن قراءة عن غير إيمان واعتقاداً بمبادئه ، وكانوا يقيمون الصلاة ولكنهم يؤدونها وهم كسالى ويقيمون فرائض الإسلام ولكن عن كره ، ولما رأوا أن خطتهم لا تضمن لهم النجاح ولا تكفل لهم السعادة إذ لا يعز في هذا الدين إلا الأبرار الصالحاء لقوله تعالى : (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) أظهروا تدليساً ورياء ، الصلاح والتقى والإيمان ، وأضمروا في دخائل نفوسهم الشرك والنفاق والحقد على

الإسلام ، وظلوا على هذه الحال يظهرن الطاعة لله والانقياد لأوامره وأحكامه حتى أشركهم المسلمون في أمورهم وشئونهم ، ولكن المسلمين مع ذلك كانوا مرتابين منهم شاكين في أمرهم على ريب من صدقهم .

٤ - واحتوت هذه الرسالة على حث الإمام وتحريضه لمحاربة هؤلاء المنافقين والمارقين من الدين ، ومواصلة حربهم حتى النفس الأخير لتستريح الأمة من شرهم ، وتسلم من مكرمهم وغوائلهم ، ولا شك أن هذه الرسالة كان لها موقع حسن في نفس الإمام ، فقد حفزته إلى مناجزة معاوية ومقاومته وإعلان الحرب عليه^(١).

رسالة الإمام إلى معاوية :

وأرسل الإمام رسالة أخرى إلى معاوية بدعوه إلى مبايعته وطاعته والدخول فيما دخل فيه المسلمون ، وقد أرسل الرسالة بيد شخصين من عيون المؤمنين وثقات الإسلام ، وهما الحارث بن سويد التميمي وجندب الأزدي ، وهذه نص الرسالة^(٢):

« من الحسن بن علي أمير المؤمنين ، إلى معاوية بن أبي سفيان - سلام عليك ، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو .
أما بعد : فإن الله جل جلاله بعث محمداً رحمة للعالمين ، ومنة

(١) حياة الإمام الحسن بن علي ، للأستاذ باقر شريف .

(٢) شرح ابن أبي الحديد .

للمؤمنين ، وكافة للناس أجمعين (لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين) ، فبلغ رسالات الله ، وقام بأمر الله حتى توفاه الله غير مقصر ولا دان ، وبعد أن أظهر الله به الحق ومحق به الشرك ، وخص به قریشاً خاصة فقال له : « وإنه لذكر لك ولقومك » ، فلما توفى تنازعت سلطانه العرب ، فقالت قریش : نحن قبيلته وأسرته وأولياؤه ولا يحل لكم أن تنازعونا سلطان محمد وحقه ، فرأت العرب أن القول ما قالت قریش ، وأن الحجة في ذلك لهم على من نازعهم أمر محمد فأنعمت لهم وسلمت إليهم ، ثم حاججنا نحن قریشاً بمثل ما حاججت به العرب فلم تنصفنا قریش إنصاف العرب لها ، إنهم أخذوا هذا الأمر دون العرب بالإنصاف والاحتجاج ، فلما صرنا أهل بيت محمد وأولياؤه إلى محاجتهم وطلب النصف (الإنصاف) منهم باعدونا واستولوا بالاجتماع على ظلمنا ، ومراغمتنا ، والعنت منهم لنا ، فالموعد الله وهو الولي النصير .

ولقد كنا تعجبنا لتوئب المتوئين علينا في حقنا ، وسلطان بيتنا ، وإن كانوا ذوى فضيلة وسابقة في الإسلام ، وأمسكتنا عن منازعتهم مخافة على الدين أن يجد المنافقون والأحزاب في ذلك مغزراً يثلمونه به أن يكون لهم بذلك سبب إلى ما أرادوا من إفساده ، فالיום فليتعجب المتعجب من توئبك يا معاوية على أمر لست من أهله . لا بفضل في الدين معروف ، ولا أثر في الإسلام محمود ، وأنت ابن حزب من الأحزاب ، وابن أعدى قریش لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولكتابه ، والله حسبيك فسترد وتعلم

لمن عقبى الدار ، وبالله لتلقين عن قليل ربك ثم ليجزينك بما قدمت يداك ، وما الله بظلام للعبيد ، إن علياً لما مضى لسبيله ، رحمة الله عليه يوم قبض ، ويوم من الله عليه بالإسلام ، ويوم يبعث حياً ، ولآلى المسلمون بعده ، فاسأل الله ألا يؤتينا فى الدنيا الزائلة شيئاً ينقصنا به فى الآخرة مما عنده من كرامة .

إلى أن قال : فدع التهادى فى الباطل ، وادخل فيما دخل فيه الناس من بيعتى فإنك تعلم أنى أحق بهذا الأمر منك عند الله وعند كل أبواب حفيظ ، ومن له قلب منيب ، واثق الله ودع البغى ، واحقن دماء المسلمين ، فوالله ما لك خير فى أن تلقى من دمائهم بأكثر مما أنت لاقية به ، وادخل فى السلم والطاعة ، ولا تنازع الأمر أهله ، ومن هو أحق به منك ، ليطئ الله النائرة (العداوة والبغضاء) بذلك ويجمع الكلمة ، ويصلح ذات البين ، وإن أنت أبيت إلا التهادى فى غيك سرت إليك بالمسلمين فحاكمتك حتى يحكم الله بيننا ، وهو خير الحاكمين .

رد معاوية على الإمام الحسن :

« أما بعد ، فقد فهمت ما ذكرت به رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهو أحق الأولين والآخرين بالفضل كله ، وذكرت تنازع المسلمين الأمر بعده فصرحت بتهمة أبى بكر الصديق وعمر ، وأبى عبيدة الأمين ، وصلحاء المهاجرين فكرهت لك ذلك إن الأمة لما تنازعت الأمر بينها ، رأت قريشاً

أخلقها به ، فرأت قريش والأنصار ، وذوو الفضل والدين من المسلمين أن يولوا من قريش أعلمها بالله ، وأخشاها له ، وأقواها على الأمر ، فاختاروا أبا بكر ولم يألوا (لم يقصروا) ولو علموا مكان رجل غير أبي بكر يقوم مقامه ، ويذب عن حرم الإسلام ذبَّه ما عدلوا بالأمر إلى أبي بكر ، والحال اليوم بيني وبينك على ما كانوا عليه ، فلو علمت أنك أضبط لأمر الرعية ، وأحوط على هذه الأمة ، وأحسن سياسة ، وأكيد للعدو ، وأقوى على جمع النوى لسلمت لك الأمر بعد أبيك ، ولكن قد علمت أني أطول منك ولاية وأقدم بهذه الأمة تجربة وأكبر منك سنًا ، فأنت أحق أن تجيئني إلى هذه المنزلة التي سألتني ، فادخل في طاعتي ، ولك الأمر من بعدى ، ولك ما في بيت مال العراق من مال بالغاً ما بلغ تحمله إلى حيث أحببت ، ولك خراج من العراق شئت معونة لك على نفقتك يجيئها أمينك ، ويحملها لك في كل سنة ، ولك ألا يستولى عليك بالإساءة ، ولا تقضى دونك الأمور ، ولا تعصى في أمر أردت به طاعة الله ، أعاننا الله وإياك على طاعته ، إنه سميع مجيب الدعاء ، والسلام .

وكما يقول الدكتور أحمد رفاعي في كتابه « عصر المأمون » إن هذه الرسالة حوت بعض المغالطات ، فقد جاء فيها : « إن هذه الأمة لما اختلفت بينها ، لم تجهل فضلكم ، ولا سابقتم للإسلام ، ولا قرابتكم من نبيكم .. إلخ » ومن يتتبع الأحداث التي وقعت بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم عرف أن العترة الطاهرة واجهت بعد النبي صلى الله عليه وسلم أشق المحن والخطوب فإن

الجرح لما يندمل والرسول عليه الصلاة والسلام لما يقبر استبد القوم بالأمر ،
وعقدوا اجتماعهم في السقيفة ، وتغافلوا عترة نبيهم ، وكان لهذا كله الأثر الذي
ظهر بعد خمسين عاماً من وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقد تابعت
عليهم الخطوب فإذا المسلمون في موكب جهير يحجوب البیداء من بلد إلى
بلد وهم يحملون رؤس آبائهم على أطراف الرماح .

رسالة أخرى من معاوية للإمام :

وأرسل معاوية إلى الإمام رسالة يحذر فيها من الخلاف عليه ويعنيه
بالخلافة من بعده إن تنازل له عن الأمر .

قال :

أما بعد ، فإن الله يفعل في عباده ما يشاء لا معقب لحكمه ، وهو سريع
الحساب ، فاحذر أن تكون منبتك على أيدي رعاع من الناس وأيس من أن
تجد فينا غميرة ، وإن أنت أعرضت عما أنت فيه ، وبايعتني وفيت لك بما
وعدت ، وأجريت لك ما شرطت ، وأكون في ذلك كما قال أعشى بن قيس
ابن ثعلبة :

وإن أحد أسدى إليك أمانة فأوف بها تدعى إذا مت وافيًا

ولا تحسد المولى إذا كان ذا غنى ولا تجفه إن كان غي المال فانيًا

ثم الخلافة لك من بعدى فأنت أولى الناس بها والسلام .

ويقول بعض رجال التاريخ إن هذه الرسالة المشتملة على مثل هذا اللون

من التهديد والتوعيد إنما بعثها معاوية إلى الإمام الحسن بعدما اتصل اتصالاً وثيقاً برجال العراق وقادته وضمّنوا له تنفيذ خطته فالغالب أنه لم يكتب ذلك إلا بعد الاتصال بزعماء العراق وانقطاع أمله من إجابة الحسن له .

آخر رسالة للإمام الحسن :

لم يكثرث الإمام تهديد معاوية وأجابه بجواب يلمس فيه الحزم :
« أما بعد فقد وصل إلى كتابك تذكر فيه ما ذكرت وتركت جوابك خشية البغي عليك وبالله أعوذ من ذلك ، فاتبع الحق تعلم أنى من أهله ، وعلى إثم أن أقول فأكذب والسلام . . »

وكانت هذه الرسالة هي آخر الرسائل التي دارت بين الإمام ومعاوية . وعلى أثرها علم معاوية أنه لا يجديّه خداعه وأباطيله ، ولا تنفع مغالطاته السياسية وعرف أن الإمام مصمم على حربه فاتجه إلى هذا الطريق بل استعجل الحرب :
لأنه اتصل اتصالاً وثيقاً بزعماء العراق ورؤساء القبائل ومناهم بالوظائف فأجابه سرّاً إلى تنفيذ أغراضه وبدل على ذلك المذكرة الآتية التي كتبها إلى عماله :

من عبد الله معاوية أمير المؤمنين إلى فلان ابن فلان ، ومن قبله من المسلمين سلام عليكم فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو - أما بعد - فالحمد لله الذي كفاكم مؤونة عدوكم وقتل خليفتمكم : إن الله بلطفه وحسن صنعه أتاح لعلى بن أبى طالب رجلاً من عباده فاغتاله فقتله فترك أصحابه متفرقين

مختلفين ، وقد جاءتنا كتب أشرافهم وقادتهم يلتمسون الأمان لأنفسهم وعشائهم ، فأقبلوا إلى حين يأتيكم كتابي هذا بجهدكم وجندكم وحسن عدتكم فقد أصبتم بحمد الله الصبر وبلغتم الأمل وأحل الله أهل البغي والعدوان والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

والذى يلفت النظر فى هذه الرسالة أن ينسب معاوية البغى والعدوان للإمام على ، مع أن جنود معاوية هم الباغون ، ولقد قتلوا الصحابى الجليل عمار بن ياسر وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : (تقتلك الفئة الباغية) كما يلفت النظر شماتة معاوية فى الإمام على رضى الله عنه .

ولما وصلت هذه الرسالة إلى عماله وولاته قاموا بتحريض الناس وحهم على الخروج والاستعداد لحرب ربيعة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسبطه ، ولما توافرت له القوة الهائلة من الجند والعسكر وأصحاب المطامع الذين لا يقدرسون سوى المادة زحف بهم نحو العراق وتولى بنفسه القيادة العامة للجيش ، وأتاب عنه فى عاصمته الضحاك بن قيس الفهرى وطوى معاوية البيداء بجيشه الجرار ، فلما انتهى إلى « جسر منبج » ^(١) وعلم الإمام الحسن رضى الله عنه بذلك أمر بعض أصحابه أن ينادى فى العاصمة « الصلاة جامعة » ويقصد بذلك جمع الناس فى جامع البلد فنودى بذلك واعتلى الإمام المنبر وقال :

« أما بعد . فإن الله كتب الجهاد على خلقه وسماه كرهاً ، ثم قال لأهل الجهاد : اصبروا إن الله مع الصابرين ، فليست أيها الناس نائلين ما تحبون

(١) جسر منبج ، بناء كسرى ، والمسافة بينه وبين حلب يومان .

إلا بالصبر على ما تكرهون ، إنه بلغنى أن معاوية بلغه أنا كنا أزمعنا على المسير إليه فتحرك لذلك ، اخرجوا رحمكم الله إلى معسكركم فى النخيلة^(١) حتى ننظر وتنظرون ونرى وترون .

ولما أنهى عليه السلام خطابه وجم الحاضرون وأخرست ألسنتهم واصفرت ألوانهم ، كأنهم قد سيقوا إلى الموت ، فلم يجب الإمام أحد منهم كل ذلك لخوفهم من أهل الشام وحبهم للسلم وإيثارهم للعافية ، وكان هذا التخاذل فى بداية الدعوة إلى جهاد العدو ينذر بالخطر ويدعو إلى التشاؤم واليأس . ولما رأى ذلك عدى بن حاتم الطائى وقف منكراً سكوتهم وتخاذلهم المفضوح قائلاً : « أنا عدى بن حاتم ، سبحانه الله ما أقبح هذا المقام ألا تجيبون إمامكم وابن بنت نبيكم ، أين خطباء مضر الذين ألسنتهم كالمخاريق فى الدعة ، فإذا جد الجدرأوغوا كالشعالب ، أما تخافون مقت الله . . . »

ثم التفت إلى الإمام مظهراً له الطاعة والامتثال قائلاً : « أصاب الله بك المرشد وجنبك المكاره ، ووفقت لما يحمد وورده وصدده ، قد سمعنا مقالتك وانتهينا إلى أمرك وسمعنا لك وأطعنا فيما قلت ورأيت . »

ثم^(٢) أظهر إلى المجتمعين عزمه على الخروج لحرب معاوية فوراً قائلاً : « وهذا وجهى إلى معسكرنا ، فمن أحب أن يوافى فليواف » ثم خرج من المسجد

(١) النخيلة موضع قريب من الكوفة وجاء فى معجم البلدان أن معاوية قتل الخوارج به لما ورد إلى الكوفة وفى ذلك يقول ابن الأصم راثياً :

إني أدبى بما دان الشرا به يوم النخيلة عند الجوسق الحزب
(٢) ابن ابى الحديد .

وكانت دابته بالبواب فركبها وخرج وحده من دون أن يلتحق به أحد وأمر غلامه أن يلحقه بما يصلحه فأتته إلى النخيلة فمسكر بها وحده ، واضطرب غيظاً وموجدة كل من الزعيم قيس بن سعد بن عباد ، ومعقل بن قيس الرياحي ، وزيادة بن صعصعة التميمي ، لما رأوا عدم إجابة الجماهير فلاموهم على هذا التخاذل وبعثوا فيهم الروح إلى حرب عدوهم ومناجزته ، ثم التفتوا إلى الإمام وكلموه بمثل كلام عدى في الانقياد والطاعة والامثال لأمره ، فشكرهم الإمام على موقفهم وأثنى على شعورهم قائلاً : « ما زلت أعرفكم بصدق النية والوفاء والنصيحة فجزاكم الله خيراً » .

وخرج الإمام عليه السلام فوراً لرد العدوان الأموي ، واستخلف في عاصمته المغيرة بن نوفل بن الحرث ، وأمره ببحث الناس على الجهاد وإشخاصهم إليه في النخيلة ، ثم إلى « دير عبد الرحمن » فأقام به ثلاثة أيام ليلتحق به المتخلفون من جنده ، ورأى أن يرسل مقدمة جيشه للاستطلاع على حال العدو واختار في مقدمة الجيش خلاصة أصحابه من الباسلين وكان عددهم اثني عشر ألفاً ، وأعطى القيادة العامة إلى ابن عمه عبيد الله بن العباس ، وقبل أن تتحرك هذه الفصيلة من الجيش دعا الإمام قائدها العام عبيد الله فزوده بهذه الوصية .

« يا ابن العم إني باعث معك اثني عشر ألفاً من فرسان العرب وقراء المصر ، الرجل منهم يزيد الكتيبة ، فسر بهم ، وألن لهم جانبك وابسط لهم وجهك ، وافرش لهم جناحك وأدبهم من مجلسك فإنهم بقية ثقات أمير

المؤمنين ، وسر بهم على شط الفرات ، ثم امض حتى تستقبل بهم معاوية ، فإن أنت لقيته فاحتبسه حتى آتاك فأبى على أترك وشيكاً وليكن خبرك عندي كل يوم ، وشاور هذين قيس بن سعد ، وسعيد بن قيس ، وإذا لقيت معاوية فلا تقاتله حتى يقاتلك فإن فعل فقاتله وإن أصبت فقيس بن سعد على الناس ، فإن أصيب فسعد بن قيس على الناس » .

وتدل هذه الرسالة على اطلاع الإمام الحسن الوافر في تدبير شئون الدولة فإن التوصية بالجيش بهذا اللون المشتمل على العطف والحنان والإطراء عليه يمثل هذا الثناء من أنهم بقية ثقات أمير المؤمنين خير دليل على ذلك .

وكان الإمام الحسن يقصد من ذلك تغذية معنوياتهم وإلهاب حماسهم والتأثير على عواطفهم ، ثم أوصاه بأن يلين لهم جانبه ويسط لهم وجهه ويفرش لهم جناحه ويدنيه من مجلسه ، وكان مقصد الإمام من ذلك إيتاء الثقة المتبادلة بين الجيش وقائده ، وهذه الثقة بدون شك ضرورية في حرب تعوزها النظم العسكرية التي نعرفها اليوم .

على أن رجال التاريخ يتساءلون عن الحيشيات التي آثر بها الإمام الحسن عليه السلام عبيد الله بن عباس للقيادة ، وفي الجيش معه أعلام من سراة الناس ومن ذوى السوابق والذكريات المجيدة الذين لا يهضمون الخلق المزهو ولا الخشونة الآمرة الناهية في الفتى الهاشمي الذي لا يزيدهم كفاءة ولا يسبقهم جهاداً ولا يفضلهم تقوى ولا يكبرهم سناً ، فقد كان عبيد الله بن عباس يوم قيادته لهذا الجيش في التاسعة والثلاثين من عمره .

ويقول رجال التاريخ أيضاً إنه كان في الجيش مثل « قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري » الرجل المعترف بكفائه العسكرية وإخلاصه الصحيح لأهل البيت عليهم السلام وبأمانته .

ويجب المغفور له الشيخ راضي آل ياسين بقوله : إن الحسن حين أراد عبيد الله للقيادة على المقدمة فرض عليه استشارة كل من قيس بن سعد وسعيد بن قيس ، كما هو صريح عهده إليه ، فخرج بذلك من الإيثار الذي يؤخذ عليه إذا كان هذا الإيثار تبعة يخاف منها على مصلحة الموقف وأصبحت القيادة - على هذا الأسلوب - شورى بين ثلاثة هم أليق رجاله لها ، أما تقديم قيس على صاحبيه وعلى غيرهما من صحابة وزعماء وإيثاره بالقيادة وحده فقد كان في حبه مظنة لتنافس الأكفاء الآخرين الذين كان يلقيهم جناح هذا الجيش وفي هؤلاء الشخصيات المعروفة في قيادتها الميادين وفي إخلاصها وجهادها وسوابقها أمثال أبي أيوب الأنصاري وحجر بن عدى الكندي وعدى بن حاتم الطائي وأضرابهم ، لذلك كان تقديم ابن عم الإمام بل ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم وتعيينه (اسماً) ثم الاستفادة من رأى قيس وصاحبه تخلصاً لبقاً لا ينبغي الخلاف فيه والتنافس عليه .

ثم إنه كان من الاحتياطات الرائعة للوضع العام يوم ذاك ألا يكون القائد في جبهة الحسن إلا هاشمياً ، وتفسير ذلك أن صورة التخاذل التي دارت مع قضية الحسن في الكوفة كانت لا تزال نذيرة تشاؤم كثير في حساب الحسن عليه السلام ، وكان عليه أن يتخذ من التدابير الممكنة كل

ما يدفع عنه ، في حاضره وفي مستقبله ، لوم الناس وتحطّتهم ونقدهم ، ومن السهل على الناس أن يتسرعوا إلى التخطئة والنقد متى وجدوا موضعاً للضعف أو منفذاً إلى الفضل والحرمان ، وكان من المنتظر أن يقولوا فيما لو فشلت قضية الحسن في مسكن إنه لو كان القائد من أهله لكان أولى من غيره بالصبر على المكارّه وتحمل العظام ، ولما آل الأمر إلى هذا المآل فكان الاستعداد لغوائل الوضع الراهن بتعيين القائد الهاشمي تديراً دقيق الملاحظة .

ثم إنه لن يكون إنسان آخر غير عبيد الله بن عباس ، لا قيس ولا ابن قيس ولا غيرهما ، أشد حنقاً ولا أعنف تألباً على معاوية منه كأب قتل ولداه (الصبيان) صبراً فيما أملت فاجعة بسر بن أرطاة يوم غارته على اليمن ، فكان من الاستغلال المناسب جداً اختيار هذا القائد لقتال قاتل ولديه .

وأخيراً فإن جيش المقدمة الذي ولى قيادته عبيد الله هذا كان أكثره من بقايا الجيش الذي أعده أمير المؤمنين عليه السلام في الكوفة لحرب أجناد الشام ثم توفي عنه ، وكان قيس بن سعد بن عبادة هو قائد ذلك الجيش في زمن أمير المؤمنين^(١) .

ولهذه السوابق أثرها في توثيق الروابط الشخصية بين القائد والمقود ، وكان من السهل على القائد النافذ في جنوده أن يحنح ، متى شاء إلى حرية التصرف التي لا تعبر عن اتصال إيجابى بالمركز الأعلى وهو ما كان يجب التحفظ منه كأهم عنصر في الموقف ، على أننا لا ننسى أن قيساً وقف بين صفوف الجيش

يوم رجعت له قيادته في مسكن يخبرهم بين الالتحاق بالإمام على الصلح وبين الاستمرار على حرب معاوية بلا إمام ، فأى احتياط كان أحسن من جعل القيادة في غير هذا الرجل وجعله مع ذلك المستشار العسكرى للاستفادة من كفاءته ودهائه وهو ما فعله الإمام الحسن . أما أمر الإمام الحسن ألا يعتدى عبيد الله على معاوية بالحرب لسد مراوغاته حتى لا يستطيع أن يدعى أنه ما جاء للحرب وإنما جاء للتداول في إصلاح أمر المسلمين ، كما نصت وصية الإمام على المشاورة .

وقد وقعت بعض أخطاء تاريخية يهمن أن نبرزها فقد قيل إن الإمام الحسن أسند قيادة مقدمة الجيش إلى ابن عمه عبد الله بن جعفر وضم إليه عشرة آلاف جندي ، وهذا يخالف ما أجمع عليه الرواة من أن قيادة المقدمة كانت لعبيد الله بن العباس بإشراف قيس بن سعد وسعيد بن قيس ، كما أن عدد المقدمة كان اثني عشر ألفاً ، وإن كان رجال التاريخ قد اختلفوا في تحديد الجيش الذي نزع مع الإمام ، فابن أبي الحديد يقول : « وخرج الناس فعسكروا ونشطوا للخروج وخرج الحسن إلى المعسكر واستخلف على الكوفة المغيرة بن نوفل بن الحرث بن عبد المطلب وأمره باستحثاث الناس وإشخاصهم إليه فجعل يستحثهم ويخرجهم حتى يلثم المعسكر وسار الحسن في عسكر عظيم وعدة حسنة حتى نزل دير عبد الرحمن فأقام به ثلاثاً حتى اجتمع الناس ثم دعا عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب فقال له : يا ابن عم إني باعث معك اثني عشر ألفاً من فرسان العرب وقراء المصر . . »

وذكر الطبرى وغيره أربعين ألفاً ، وجاء فى شرح النهج فى صدد عتاب
المسيب للإمام الحسن على صلحه كما سأتى ذلك تفصيلاً : « فقال المسيب
ابن نجبة للحسن عليه السلام : ما ينقض عجبى منك صالحت معاوية ومعك
أربعون ألفاً » ويقول ابن الأثير فى الكامل : « كان أمير المؤمنين على قد بايعه
أربعون ألفاً من عسكره على الموت لما ظهر ما كان يجبرهم به عن أهل الشام
فبينما هو يتجهز للمسير قتل عليه السلام وإذا أراد الله أمراً فلا مرد له . فلما
قتل وباع الناس ولده الحسن بلغه مسير معاوية فى أهل الشام إليه ، فتجهز
هو والجيش الذين كانوا بايعوا علياً ، وسار عن الكوفة إلى لقاء معاوية ، وكان
قد نزل مسكن ، فوصل الحسن إلى المدائن ، وجعل قيس بن سعد بن عبادة
الأنصارى على مقدمته فى اثنى عشر ألفاً . . . » . ويؤيد هذا أيضاً ابن كثير .
وكذلك روى ابن قتيبة أن سليمان بن صرد ذكر للإمام الحسن عند عتابه
أيضاً على الصلح : « أما بعد ، فإن تعجبنا لا ينقض من بيعتك معاوية ومعك
مائة ألف مقاتل من أهل الفرق » وإن كان ابن قتيبة ينفرد دون غيره برواية
المائة ألف عن سليمان بن صرد ، وهكذا اختلف رجال التاريخ فى عدد الجيش ،
والأقرب إلى الصحة أن عدد جيش المقدمة هو اثنا عشر ألفاً ، وعدد المتطوعين
بعد ذلك فى الكوفة أربعة آلاف ، ثم الفصائل التى تواردت على الحسن فى
دير عبد الرحمن ، وهذه قرابة عشرين ألفاً .

على أن الاختلاف فى عدد الجيش ليس بذى أهمية لأن الجيش مهما كان
عدده كثيراً ، إذا كان مختلف الأهواء ، فلا بد أن ينهزم ، ولا يجىء النصر

إلا بالإخلاص والإيمان والعقيدة ووحدة الكلمة ، فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله بتضامنها وتعاونها .

كما قيل إن الإمام الحسن تجهز لحرب معاوية بعد ثمانية عشر يوماً من وفاة أبيه ، والمرجح أن الإمام لم يستعد للحرب إلا بعد ما فشلت جميع الوسائل التي اتخذها لأجل السلم ، وتقدر هذه المدة بنحو شهرين على الأقل .

ويقول ابن كثير : إنه لم يكن في نية الحسن أن يحارب ، وهذا في الأرجح غير صحيح لأنه لو لم يكن من رأيه الحرب لما بعث إلى معاوية تلك الرسائل التي يتهدده فيها ويتوعده بإعلان الحرب إن لم يدخل في طاعته .

وبعد ما أسند الإمام القيادة العامة في مقدمة الجيش إلى عبيد الله بن العباس انطلق عبيد الله يطوى البيداء مع الجيش حتى انتهى إلى (مسكن) فاستقام فيها ، وقابل العدو وجهاً لوجه ، وهنا قام معاوية بدوره من نشر المخاوف والأراجيف ، وكانت باكورة تلك الدسائس نشر العيون ليزيعوا الذعر والإرهاب ، وكانت دعايتهم الأولى هي :

« إن الحسن يكتب معاوية على الصلح ، فلم تقتلون أنفسكم » .
ويمكن بهذه الوسيلة من الاتصال بعبيد الله بن العباس وجذبه إليه ، وقال له في رسالة بعث بها إليه : إن الحسن قد راسلني في الصلح ، وهو مسلم الأمر إلى ، فإن دخلت في طاعتي الآن كنت متبوعاً وإلا دخلت وأنت تابع^(١)

(١) وذكر ابن أبي الحديد رسالة معاوية ونصها (إن الحسن سيضطر إلى الصلح وخير لك أن تكون متبوعاً ولا تكون تابعاً . . .) .

ولك إن أجبتي الآن أن أعطيك ألف ألف درهم أعجل لك في هذا الوقت نصفها وإذا دخلت الكوفة النصف الآخر .

وكان معاوية أحرص بشر على استغلال مآزق أعدائه « وكان إيمان معاوية بالسفالة البشرية إيماناً لا حد له ، وهو إيمان يقوم على الاعتقاد بأن أقوم الناس خلقاً ، وأشدهم عزماً ، وأنقاهم فضيلة قد تستغويه الأطماع ويذله الحرص في ساعة من ساعات الضعف الذي يطرأ على النفوس ، وفترة من فترات الشك الذي لا ينفك عن مطاردة الناس ، ولا يسلم من غوائله أفاضل الناس وأعلى البشرية »^(١).

وكان فيما حذر به أمير المؤمنين عليه السلام زياداً ، كما جاء في الكامل ، أن قال له : « وإن معاوية يأتي الإنسان من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله فاحذر ثم احذر » .

وهكذا صرع الشعور بالخيانة المفضوحة والضعف المخدول . فإذا هو أبشع صور الخيانة المفضوحة والضعف المخدول .

وفي غلس الليل البهيم تسلل عبيد الله إلى معاوية ومعه بضعة آلاف من الجيش ، دخل دخول المهزوم المخدول الذي يعلم في نفسه أى إثم عظيم أتاه ، وفي تقديرى أن في عنق عبيد الله تقع المسؤولية الكبرى ، فقد أدى تركه لجيش الإمام إلى زعزعته وتقليل وحداته واضطرابه ، وأصبحت البقية الباقية من الجيش تفتش عن قائدها ليصلى بها صلاة الصبح فلا تجده .

ولما رأى قيس بن سعد ما حدث من الفتنة السوداء ، قام فصلى بهم صلاة الصبح ، وبعد الفراغ منها قام خطيباً ، فهدأ روعهم وأثابهم إلى الصواب والرشاد وقال في خطابه :

« إن هذا وأباه وأخاه لم يأتوا بيوم خيراً قط ، إن أباه عم رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج يقاتله بيد فأسره أبو اليسر كعب بن عمرو الأنصاري ، فأتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخذ فداءه فقسمه بين المسلمين ، وإن أخاه ولاء على البصرة ، فسرق ماله ومال المسلمين فاشترى به الجوارى ، وزعم أن ذلك له حلال ، وإن هذا ولاء على اليمن فهرب من بسر بن أرطاة ، وترك ولده حتى قتلوا ، وصنع الآن ما صنع »^(١). وكان قيس مؤثراً جداً ، وكان من تأثيره على سامعيه فيما ثلب به عبيد الله بن العباس أن « تنادي الناس : الحمد لله الذي أخرجهم من بيننا » .

ومما لا شك فيه أن خذلان عبيد الله بن العباس كان العامل الأساسي الذي سبب تفكك الجيش وتحاذله ، فقد طعن الجيش العراقي وفتح باب الخيانة والغدر ، ومهد السبيل للالتحاق بمعاوية . وقد وجد ذوو النفوس الضعيفة مجالا واسعاً للغدر بخيانتهم للإمام ، فاتخذوا من غدر عبيد الله وسيلة لذلك فهو ابن عم الإمام ومن أقرب الناس إليه ، وقد بما قد قيل :

إذا فأتك الأدنى الذي أنت حزبه فلا عجب إن أسلمت الأبعاد
وكان لغدر عبيد الله في نفس الإمام حزن بالغ وأسى مرير ، فإنه لم يزع

الدين ولا الوتر ولا الرحم الماسة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا من قائده الأعلى ، ولا الميثاق الذى واثق الله عليه فى البيعة منذ كان أول من دعا الناس إلى بيعة الحسن فى مسجد الكوفة ، ولا الخوف من حديث الناس ونقمة التاريخ .

هل اكفى معاوية بخيانة عبيد الله بن عباس ؟ قطعاً لا . فقد تلون معاوية تلوناً مخيفاً ، فعمد إلى سلة أكاذيب يختار منها ما يشاء ، ثم يبعث بها إلى معسكرات الحسن . . . فكان يدمس إلى عسكر الحسن فى المدائن من يتحدث : إن قيس بن سعد - وهو قائد مسكن بعد فرار عبيد الله بن عباس - قد صالح معاوية وصار معه ، ويوجه إلى عسكر قيس فى مسكن من يتحدث أن الحسن قد صالح معاوية وأجابه . ثم ينشر فى إشاعة أخرى على معسكر المدائن « ألا إن قيس بن سعد قد قتل فأنفروا » . وهكذا بلغ معاوية بفتنته ما أراد .

وما منى الإسلام منذ ضرب بجرانه على جزيرة العرب بأفدح من هذه النكبة التى يترنج بها موقف الخلافة الإسلامية بين تناقل الجنود ، وتخاذل الزعماء ، وخيانة القائد ، وقتل العدو .

إنها الظروف القاهرة التى بدأت تنذر بأكداس من الخطوب والنكبات والتى ستجر حتماً إلى نهاية تاريخ قصير كان أنصع وأروع صفحات التاريخ الإسلامى وأبعدها ارتفاعاً فى المجد ، وأقربها أسباباً إلى الفخر ، إنها الكارثة التى تؤذن باللمحظة المشؤومة فى تاريخ الإسلام ، واللمحظة القائمة على عملية

الفصل بين العهدين : عهد الخلافة بمميزاتها ومثالياتها ، وعهد (الملك العضوض) وبلائه المقدر المقروض .

وكان الحسن عليه السلام أعرف الناس بقيمة هذه المعنويات المهددة ، وأحرص المسلمين على حفظ الإسلام ، والرجل الحديدي الذي لا تزيده النكبات المحيطة به إلا لمعاناً في الإخلاص ، وانتقاداً في الرأي ، واستبسالاً في تلبية الواجب وتفادياً للمبدأ .

ولم يكن لتساوره الحيرة على كثرة ما كان في موقفه من البواعث عليها ، ولا وجد في صدره حرجاً ولا تلوماً ولا ندماً ، ولكنه وقف ليختار الرأي ، ويرسم الخطة وليتخذ التدابير .

يقول ابن كثير : « وهو - يعني الإمام الحسن - في ذلك الإمام البار الراشد الممدوح ، وليس يجد في صدره حرجاً ولا تلوماً ولا ندماً ، بل هو راض بذلك مستبشربه » .